

"حضرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في تلمسان الزبانية -مقاربة تاريخية أنثروبولوجية-"

“ The celebration of the prophet's birth in Tlemcen Zayaniya-a historical anthropological approach”

¹غزالي عبد العالي¹، أ.د نقادي سيدي محمد²

¹Ghezali Abdelali,² Negadi Sidi Mohamed

¹ جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان- مخبر الدراسات الحضارية والفكرية

gezeli3112@gmail.com

¹ Abou bekr Belkaid University - Tlemcen

Laboratory of civilizationel and intellectual studies

² كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان

smnegadi@gmail.com

² Abou bekr Belkaid University - Tlemcen faculty of humanity and social sciences

تاريخ القبول: 2020/05/21

تاريخ الارسال: 2020/04/29

ملخص:

تعتبر ظاهرة الاحتفالات الدينية في حواضر العالم الإسلامي في الفترة الوسيطية عادة راسخة في ذهنيات المجتمع والسلطة الحاكمة، إذ تختلف طقوس الممارسة وطريقة الاحتفال من مجتمع إلى آخر، وتعتبر هذه العادة بمثابة الحضور الديني في المخيال الإسلامي لدى المجتمعات وإبقائه حاضرا في حياة الناس، وتثبيتته كتقليد رسمي يوطد التواصل العام بين أفراد المجتمع؛ إذ مثل المولد النبوي الشريف الصورة المقدسة في امتثال الكثير من المجتمعات للاحتفاء بمولده -صلى الله عليه وسلم- وعلى رأسها المجتمع الزباني بتلمسان، حيث كان الناس يحتفلون في ابتهاج وسرور بممارسات تقليدية بقصر المشور؛ تعبر عن مدى الشعور الديني العميق الذي سيكون له أثر اجتماعي وبعد سياسي لاسيما في عهد أبو حمو الثاني.

كلمات مفتاحية: الاحتفالات؛ العادة؛ الحضور الديني؛ المجتمع الزباني؛ المشور؛ المولد النبوي.

¹ المؤلف المرسل: غزالي عبد العالي، gezeli3112@gmail.com

Abstract:

The phenomenon of religious ceremonies in the cities of the Islamic world in the Middle Ages is a habit rooted in the mentalities of society and the ruling authority, as the rituals of practice and the method of celebration vary from one community to another. The joy, pleasure and traditional practices of Qasr al-Mashour reflect the extent of the deep religious feeling that will have a social impact and a political dimension, especially during the reign of Abu Hammou II.

Keywords: ceremonies; habit; religious presence; Zayani society; alMashour; prophet's birth.

مقدمة:

يعتبر شهر ربيع الأول رمزا للعادة الاحتفالية المولدية الموسمية، ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ، ويعملون الولائم لذلك ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة سيرته ﷺ، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم، وأصبح هذا التقليد ملزما كل المجتمعات والدول المتعاقبة على تعظيم المولد منذ ظهوره على يد الفواطم في مصر إلى نهاية الفترة الوسيطة؛ كما أصبحت هذه العادة تأخذ أبعادا سياسية ودينية لاعتبارات عديدة منها النسب الشريف وتعظيم النبي ﷺ على شكل حفل رسمي يقيمه السلطان في قصره ويحضره العاقمة والأعيان، وألفت في ذلك كتب ونظمت المتون والأمداح وتغنى الشعراء بسيرته ﷺ، فما هي أهم الممارسات الطقوسية للحضرة الاحتفالية بالمولد النبوي الشريف عند الزينيين بتلمسان؟

أولا: البعد التاريخي لظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي عند الزينيين بتلمسان:

أول ما ظهر الاحتفال بحضرة المولد النبوي الشريف عند الشيعة الإسماعيلية خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وتشير المصادر الإخبارية التي اهتمت بتاريخ الفواطم وعاداتهم في احتفالاتهم بالمولديات لاسيما المولد النبوي الشريف كالمقريزي في "الخطط" والقلقشندي في "صبح الأعشا" إلى أنهم أول من سنّ هذه العادة (المقريزي، 1996، صفحة ص48)، وتوارثها عنهم من جاء بعدهم من ملوك بلاد الشام والعراق ومصر (Catherine, 1993, p. 314)، لاسيما في بلاد ماوراء النهرين التي شهدت احتفالا ضخما لمولد النبي ﷺ وبالضبط في مدينة إربل نهاية القرن السادس الهجري/ الثامن عشر ميلادي، ثم عمّت هذه العادة بلاد المشرق والمغرب.

تشير المصادر التاريخية إلى أن المجتمع الزياني التلمساني احتفل رسمياً بالمولد النبوي مع تولي أبي حمو موسى الثاني مقاليد الحكم سنة 760هـ/1359م (التنسي، 1985، ص164)، في حين شاعت هذه العادة الاحتفالية ببلاد المغرب والأندلس وأصبحت عادة رسمية تقام لها كل طقوس الاحتفال التي تخلف عنها المجتمع التلمساني حتى منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي، فنجد الدكتور عبد العزيز فيلاي في دراسته عن تلمسان خلال العهد الزياني (فيلاي، 2002، ص276)، يطرح تساؤلاً عن مدى تخلف هذا المجتمع عن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أكثر من نصف قرن من الزمان بعد انتشارها؟

نعتقد أنّ المجتمع الزياني عرف قطعة ابستمولوجية وبقما كانت هذه الظاهرة تنتشر ببلاد المغرب الإسلامي، أي منذ بداية القرن السابع الهجري، حيث تطلعنا المصادر التاريخية بصورة غير مباشرة على أنّ أهل تلمسان كانوا قد عرفوا هذه العادة المرغوبة بعد الغزوات التي تعرضت لها المدينة تلمسان، من قبل بني حفص وبني مرين، لكن لم تتخذ طابعاً رسمياً بل أثّرت الحروب بشكل سلبي على ذلك، بالإضافة إلى الشعور الديني لدى أبي حمو موسى الثاني وما يترتب عن ذلك من إعادة الاعتبار لهيبة السلطة الزيانية، وبالتالي الصراعات العسكرية وعدم الاستقرار الأمني لدى المجتمع الزياني، ولّد في ذهنياته نوع من الفتنور الدّيني والانحياز النفسي الذي انعكس عليه بالسلب، وهذا ما يؤكّد عليه فيلاي عبدالعزيز ويعلّل أنّ الظروف السياسية (فيلاي، 2002، ص277) التي اكتوى بنارها هذا المجتمع هي من جعله يتخلف عن الاحتفال أكثر من نصف قرن.

ثانياً: رمزية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

1. الحضرة الاحتفالية:

"الحضرة" (hadra) هو مصطلح له دلالة روحية صوفية، والحضرة هي تجمع كبير وموسع لمناسبة احتفالية على شرف أحد المرابطين، وتكون بذلك مجالاً للقاء ومعالجة أهم القضايا التي تخص الجماعة (Rinn, 1884, p. 84)، وهي فضاء أو مكان لها حرمتها (الزاهي، 2005، صفحة 55)، ولها ارتباط وثيق بالموسم أي الدورة الزمنية التي يتم فيها الموعد الرسمي للعادة الاحتفالية؛ يعتقد الباحثين الأنثروبولوجيين أنّ المولد النبوي يشكّل الفضاء الدّيني الطقوسي الذي من خلاله تظهر كلمة "ميلود" التي تقتن "بالموسم"، فالموسم ينعقد في ذكرى المولد النبوي وهو ما يمنحه اسم الميلود، وبالتالي تتحوّل ذكرى ميلاد النبي ﷺ إلى ممارسة رمزية في كل موسم ومقدّس ديني راسخ في أذهان المجتمع، وهذا ما يفسّر ذهنيات

الناس في تسمية ابنائهم بهذا المقدس "الميلود" خاصة في الجزائر (الزاهي، 2005، صفحة 55)، لقد أخذت هذه العادة الاحتفالية (الحضرة) طابع القداسة؛ وأصبحت المحافظة عليها من الأهمية بما كان بالنسبة لجميع أفراد المجتمع، وهذا ما ينطبق بالدرجة الأولى على المجتمع الزباني الذي كان يرى في حضرة الاحتفال بالمولود النبوي واجب مقدس.

2 . تعظيم يوم مولد النبي ﷺ

يتخذ الاحتفال بالمولود النبوي الشريف طابعا رمزيا ولا يكتفي بذكرى الميلاد فقط، حيث تتحوّل ولادة النبي ﷺ موضوع الاحتفال إلى ولادة رمزية وليس زمنية، مثلما تتحوّل لحظة وفاته إلى لحظة ولادة حقيقية (الزاهي، 2005، صفحة 51)، وعليه فإنّ استحضار رمزية المولود في المتخيل الذهني هي بمثابة استحضار السلوك الوجداني والروحي لذات النبي ﷺ يعني أنّهم يجعلون حياته كأنّها ممتدة، فيبالغون في التبجيل والتعظيم والمدح والثناء.

تكتسي عادة الاحتفال بالمولود النبوي الشريف في المجتمع المغربي بصفة عامة والمجتمع التلمساني بصفة خاصة أهمية كبيرة في الحضور الديني والمتخيل الذهني عندهم، وتكمن هذه الأهمية في تعظيم النبي ﷺ في اليوم الذي ولد فيه واستحضار الذات الإلهية في هذا التعظيم، إذ قرّن الله عزّ وجلّ اسمه باسمه وشرّفه على خلقه فأجلّه بأن شقّ له من أسمائه ما دلّ على كمال صفته ووسمه (الرصاص، 2002، ص37)، إنّ هذا الاسم مشتق من أسمائه سبحانه وتعالى وسمي النبي ﷺ محمداً وأحمداً بمعنى محمود أي يحمد الانام (القاضي عياض، ج1، ص236)، وما نستدلّ به في هذا الموضع ما ذكره التنسي في نظم الدر:

نَبِيٌّ تَسَمَّى أَحْمَدًا وَمُحَمَّدًا وَأُطْنَبَ فِيهِ الْوَحْيُ بِالْمَدْحِ وَالْحَمْدِ
نَبِيٌّ جَمِيعُ الرُّسُلِ تَحْتَ لِوَائِهِ وَقَدْ حُصَّ فَضْلًا ذُوهُمْ بِلَوْا الْحَمْدِ
كَمَا حُصَّ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي كَرَامَةً مِنْ اللَّهِ وَهِيَ السَّبْعُ مِنْ سُورَةِ الْحَمْدِ

(التنسي، 1985، ص198).

فخالق العالم بأسره الموصوف بكونه في ذاته وصفاته حميدا محمودا، قد شق سبحانه ما سُمّي به تاج العارفين، وبالغ في حمده لأنّه سيد ما خلق من المحمودين (الرصاص، 2002، ص68)، كذلك أقرن الله تعالى اسم محمد مع اسمه في الشهادة فنقول: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ووصفه في القرآن بصاحب الخلق العظيم يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، الآية رقم 04)، وجاء في مسند الإمام أحمد أنّ عائشة

رضي الله عنها سُئِلَتْ عن خُلُقِ النبي ﷺ فقالت: «كان خُلُقُه القرآن» (ابن حنبل، 2001، ج41، ص149)، أي أدبه ربّه بالقرآن ومنحه خلق عظيم؛ كلّ هذه القرائن تدلّ على الشعور الديني في ذهنية المجتمع الزباني وغيره ممّا جعلهم يترجمون هذا الشعور إلى تعظيم النبي ﷺ في ممارسات احتفالية لازالت آثارها باقية إلى اليوم، وسمّي شهر ربيع الأول عندهم بشهر البركة والتهاني (مجهول، 2001، ص248)، تيمّنا بذكرى المولد؛ ويصور لنا حسان بن ثابت هذه الأهمية في بيتين من الشعر قوله:

وَصَمَّ إِلَهُهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْحَمْسِ الْمُؤَدَّنْ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ قَدُّو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

(حسان بن ثابت، 1994، ص54).

حيث أصبحت هذه العادة تمثّل عرفاً ملزماً في تطبيق شعائر وطقوس الاحتفال، وباعتباره عاملاً أساسياً في تشكيل البنية الاجتماعية ذات الأجناس المختلفة فإنّه يساهم بشكل كبير في تشكيل الارتباط الوثيق بين السلطان فمن دونه من رعيته، وبالتالي يضيف على ذلك نوع من الرضا النفسي، لاسيما إذا ساعدت الظروف في تمتين روابط الولاء للدين التي طالما غدّت شعورهم بالانتماء المشترك له، ولم تكن هذه العادة مقتصرة في مجتمع دون غيره بل لقيت انتشاراً كبيراً واستحسنها الملوك والعلماء وتفنّوا في طريقة الاحتفال.

3 . تجليات الممارسة الطقوسية للحضرة الاحتفالية:

أ. شعر المديح: احتفل سلاطين بنو زيان بالمولد النبوي في المشور بطريقة مميّزة، وكان أبو حمو موسى شاعراً مميّزاً في المديح فضلاً عن تشجيعه للعلماء والشعراء على الاهتمام بذلك (1887, p154, Bargés) وكانت عادة شعراء البلاط الجمع بين مدح المصطفى ﷺ ومدح السلطان، خاصة وأنّ شعر أبي حمو يكثر فيه طلب الشفاعة من رسول الله ﷺ، ثم يذكر فضائله وشوقه إليه ولهفته إلى زيارة البقاع المقدّسة والوقوف على قبره ليختم بالسلام عليه (قوي، 2015، ص127)، وفي ذلك نقبتس ما ذكره التنسي في مآثر أبي حمو الشعرية عن المولد:

بِمَوْلِدِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْكَوْنُ كُلُّهُ وَكُلُّ سَنَى شَمْسٌ وَبَدْرٌ وَدُرِي
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بِالْبَقِيعِ وَبِالْحِمَى سَلَامٌ عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ التُّهَامِي
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُرَوُّ مُحَمَّدًا وَأَمْنَحُ مَا أَهْوَاهُ فِي مَنْزِلِ الْوَحْيِ

(التنسي، 1985، ص168).

وعلى غرار ما ذكره كل من يحيى بن خلدون والتنسي في فضل هذه الليلة وبركتها على مجتمع مدينة تلمسان لاسيما على عهد أبي حمو موسى الثاني، ها هو صاحب زهر البستان يعطينا صورة صادقة عن كرم هذا السلطان الزياني لرعيته من الفقراء والمعوزين وإقراض المدائح والشعر حيث "أمر بإقامة الليلة الشريفة، وضاعف فيها الإنفاق، وأجاد المدائح الشعراء، وواسى المعوزين الفقراء وتليت الأمداح صورا على ألسنة الشادين" (مجهول، 2001، ص115)، إذ كانت المدائح الدينية عبارة عن روحانيات يتمثلها المحتفلين والتي كانت تتلى على ألسنة الناشدين، ومن غير المستبعد أن كان السلاطين والعلماء يحضرون هؤلاء - المتصوفة والمداحون- من أجل كسب قلوب العامة لما كانوا يكسبونه من سلطة روحية قوية.

كانت عادة إقراض الشعر وجزل النثر والنظم والأمداح واردة عند أبي حمو موسى الثاني، ويقابل أصحابها بالعطاء والإكرام والاهتمام لأنهم يزيّنون ليلة المولد بأحسن الكلام وأعطره عن المصطفى ﷺ، وفي هذا السياق يقول صاحب زهر البستان: «فأنته الشعراء بالقصائد يذكرون ما له من المواقف والمشاهد، فأقبل على نظامهم وثاب بنخوته إلى إكرامهم وأظهر محبته للشعر وأنه يدين بالنظم والنثر، ثم أحسن لهم الجوائز وأجزلها... ولم تزل الأمداح تأتيه... إلى أن رفعت له الدواوين من الأمداح وانتشر عنه من الكرم والجوائز ما استمال روحانية الأرواح» (مجهول، 2001، ص56). ويورد صاحب زهر البستان على لسان الفقيه أبي محمد عبد المؤمن بن يوسف المديوني في فضل ليلة المولد:

مَدْحُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْعَدْنَانِي	هُوَ عُدَّتِي لِقِيَامَتِي وَكَفَانِي
صَيَّرْتُهُ شُعْلِي وَعَايَةَ مَقْصَدِي	حَتَّى جَرَى بِجَوَانِحِي وَجَنَانِي
رَسَحَتْ مَحَبَّتُهُ بِقَلْبِي فَأَكْتَفَى	وَجَزَتْ مَجَارِي الرُّوحِ مِنْ جُثْمَانِي
الْهَاشِمِيُّ الْأَوْفَى الْكَرِيمُ الْمُجْتَبَى	مَنْ جَاءَ بِالنُّورِ وَبِالْبَرْهَانِ
وَضَعْنَاهُ آمِنَ لَمْ تَجِدْ فِي وَضْعِهِ	أَلَمَّا كَمَا يَأْتِي إِلَى الْيَسْوَانِ
فِي لَيْلَةٍ أَهْدَتْ لَنَا كُلَّ الْمُنَى	بِظُهُورِ خَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ عَدْنَانِ
لَكَ يَا رَبِّعَ عَلَى الشُّهُورِ مَزِيَّةٌ	إِذْ حِثَّتْهَا بِالْحُسْنِ وَالْإِحْسَانِ

(مجهول، 2001، ص51).

ومن بين أهم الشعراء الذين تركوا أثرا واضحا في أبي حمو موسى الثاني بقصائدهم ومدائحهم أو كما يعرف بشعر المولديات، هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري في قصيدة له نقتبس منها هذه الأبيات:

لَنَا الْفَضْلُ إِذَا كُنَّا بِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ	نُفَاجِرُ مَنْ شِئْنَا بِهِ وَنُطَاوِلُ
بِمَوْلِدِهِ الْأَيَّامَ رَاقٍ جَمَالُهَا	فَطَابَتْ لَنَا أَسْحَارُهَا وَالْأَصَائِلُ
أَشْهَرُ رَبِيعٍ حُزْتُ كُلَّ فَضِيلَةٍ	بِأَفْضَلٍ مَنْ تَمَّتْ لَدَيْهِ الْفَضَائِلُ
وَلَيْلَةٍ تُنْتَتِي عَشْرَةَ مِنْكَ شُرْفَتِ	فَفِيهَا بَدَا بَدْرُ الْهُدَى وَهُوَ كَامِلُ
بِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَشَاهِدُ	لَنَا مِنْهُ فِيهَا أَنْعَمُ وَقَوَاضِلُ
عَوَائِدُ إِحْسَانٍ وَحُسْنَى عَوَائِدُ	تَنَالُ بِهَا مِنْهُ هَبَاتُ جَلَائِلُ
فَمَا مِثْلُهَا فِي الدَّهْرِ لَيْلَةُ مَوْلِدِ	وَلَا مِثْلُهُ لِلدِّينِ كَافٍ وَكَافِلُ
هُوَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مُوسَى بْنُ يُوسُفَ	إِذَا اخْتَفَلَتْ يَوْمَ الْفَخَّارِ الْمَحَافِلُ

(يحيى ابن خلدون، 2011، ج2، ص68).

ولعل ما ميّز طقوس الاحتفال عند الزينيين بروز لون جديد من الشعر عرف بالمولديات أو المديح النبوي، حيث كان الشعراء الزينيون يقرضون القصائد الشعرية في مدح النبي ﷺ وعلى رأسهم أبي حمو موسى الثاني (مرتاض، 1975)، الذي كان شاعرا فحلا وأديبا مفعوها، ترك قصائد في المولديات عبر فيها عن مشاعره الروحية في تعظيم ليلة المولد حيث يقول:

نَبِيٍّ أَتَى رَحْمَةً لِلْعِبَادِ	فَمَحَى وَمَحَضَ عَنَّا الدُّنُوبَا
وَسَنَّ الشَّرِيعَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ	وَشَقَّ عَلَى الْكَافِرِينَ الْحُرُوبَا
بِمَوْلِدِهِ أَشْرَقَ الْأُفُقُ نُورًا	وَالْبَسَتْ الْأَرْضُ حُسْنًا قَشِيبَا

(أبو حمو، 2011، ص162).

ب. ساعة المنجانة: منقانة أو منجانة أو منكلّة (mangana) وهي آلة-ساعة- تعرف بها الأوقات الليلية، ذات شكل هندسي غريب وجدت بمشور تلمسان استعملها أبوحمو موسى كرمز احتفال بليلة المولد النبوي (Dozy, 1881, p. 617)، وصف مؤرخي البلاط وظيفة هذه الساعة في قياس الزمن وشكلها الهندسي المحكم الصنعة، وهي من المظاهر الطقوسية الموسمية التي تمارس بانتظام في البلاط الزيناني منذ سنة 760هـ/1359م، ثم بقيت هذه العادة حاضرة في مخيلة بني زيان متوارثة بشكل رسمي، إذ يقول يحيى بن خلدون في هذا الصدد: «وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللّجّين المحكمة قائمة المصنع تجاهه، بأعلاها أيكّة

تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه، ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة يجذر الأيكة صُعداً، وبصدرها أبواب موجفة عدد ساعات الليل الزمانية». (خلدون، 2011، صفحة 39).

تعدّ آلة المنجانة الاحتفالية شكلا من أشكال النشاط الفكري والإنساني، والهدف منها الفرحة والمتعة وإرضاء الذات في حضرة السلطان الزياني، ولها دلالة نفسية من خلال الوحدة النغمية التي تصدرها وهي الاستمتاع بالنغمات والحركات الصادرة من منها، والتي تبعث رسائل روحية بتوظيفها كسماعات رمزية تدقّ كلّما مرت ساعة من الليل.

ت. موائد الطعام: وبعد الاستماع إلى القصائد يكون الليل قد اقترب من آخره فيؤتى بموائد الطعام، التي وصفها التنسي في نظم الدر قائلا: « ثم يؤتى آخر الليل بموائد كاهلالات دورا، والرياض نورا، قد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحقها الأعين » (التنسي، 1985، ص163)، وهذه الموائد تحتوي على أنواع كثيرة من الطعام التي كان يفضلها الناس في تلمسان، ويتناول الحضور الطعام بما فيهم السلطان (شقدان، 2002، ص163)، وقد ذكر يحيى بن خلدون أنه يؤتى في آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح والمشام، المتعدد الحيوانات ممّا أرحبت ساحته وحبرت بروده وناء بالعصبة أولى القوة محمله ثم الفواكه فالحلواء (خلدون، 2011، ج2، ص46)، وبذلك تنجلي هاته الليلة بمراى منه ومسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح (التنسي، 1985، ص164). على هذا الأسلوب كانت تمضي ليلة مولد المصطفى ﷺ في جميع أيام دولة السلطان، أعلى الله مقامه في عليين وشكر له في ذلك صنعه الجميل (المقري، 1940، ص243).

يشكّل طعام الاحتفالات عند الزيانيين بتلمسان حدثا اجتماعيا بارزا لاسيما في إقامة حضرة الاحتفال بالمولد النبوي، ممّا يجعل المشاركة في الطعام تتألف من طبخ الطعام وتقديمه في وجبة شهية لتستمتع بها مجموعة محدّدة من أفراد المجتمع، ومن هنا تصبح للطعام - كوجبة اجتماعية - قيمة جمالية يُستمدّ منها معناها (أدابون، صفحة 84)، ويوضح لنا ذلك ابن مرزوق التلمساني في مسنده بوصف دقيق ما اشتملت عليه هذه العادة الدّينية من طقوس احتفالية في قوله: «ومن العادة أن يستعدّ لها بأنواع المطاعم والحلوات وأنواع الطّيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس، فإذا صلّينا المغرب ركع ركعات ثم قصد مجلسه الحافل، فيستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم... دعي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام... وجميع ما

يفضّل من بخور وشماع على كثرتها، ووفور عدّتها يقتسمه الفقراء المسافرون على قدر استحقاقهم...» (ابن مرزوق، 1981، ص154).

كما أنّ تقديم الطعام في هذه الأجواء الاحتفالية قد يعزّز أواصر الصداقة والعلاقة الاجتماعية عبر اقتسام الأكل والشرب بشكل جماعي، فكان السلطان الزياني هو من يتولّى ترتيب ذلك؛ حيث أقام بمشوار داره العلّية مدعى كريما وعرسا حافلة، احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة» (خلدون، 2011، ص39)، واحتوى هذا الطعام على مختلف ألوانه من أخباز طرية وليّنة وثريد مطبوخ، بالإضافة إلى اللحوم المشوية أو المقلية أو المدقوقة ونحو ذلك مما يليق بقدسية المشهد الاحتفالي.

ث. إيقاد الشموع: من مظاهر الاحتفاء بليلة الحضرة النبوية في تلمسان الزيانية "إيقاد الشموع"، وهي تعبير على القبس الربّاني الذي يتجلّى في الحضرة الاحتفالية من شعاع النور والإضاءة، والغالب أنّ هذا الشمع صارت له أهمية خاصة في المغربين الأقصى والأوسط (المنوني، 2000، ص 525) تلك العادة المتبعة، وهذا ما يذكره الونشريسي معقبا على إحدى النصوص فيقول: « يظهر من هذا الكلام القضاء بالشمع للمعلّمين على آباء الصبيان في ميلاد النبي ﷺ، لأنّه فاش معتاد ببلاد المغرب الأوسط والأقصى، ولا انتزاع في انتصاب المعلمين لأجله ولا سيما وهو موسم عظيم عند أهل ملّة الإسلام يعتنون به في الحواضر تعظيما لبنينا وسيدنا محمد ﷺ » (الونشريسي، 1981، ج8، ص254).

كما أوردت المصادر عن الذي يقع في ذلك اليوم من إيقاد الشمع وتزيين المكاتب والأولاد والإنشاد في محاسن سيد العباد من العادات المستحسنة في حضرة الاحتفال، ويعتبر عيد من أعياد المسلمين لظهور نور خير الخلق فيه وسيد المرسلين، فالتزيين فيه بأحسن الثياب من اللباس واستعمال الطعام وإظهار المحبة بالركوب على أحسن الدواب وكثرة الصلاة عليه وإنشاد القصائد في صفته "الأنصاري، فهرست الرصاع، 1967، ص 24)، وتعدّ الشمعة أحد المعايير في قياس شدّة الإنارة ورمزها القنديلة، وهي الشمع التي تعكس تجليات الرحمة والبركة لهذا المقدّس الديني.

يتّضح جليّا أنّ الاحتفال بهذه الليلة كانت قناعة راسخة في ذهنية المجتمع الزياني وعقيدة دينية راسخة، لا يمكن مخالفتها باعتبارها عرفا متواترا وسنة مؤكّدة في كل عام وهذا ما وصّى به أبو حمو موسى الثاني ابنه فيقول: « يا بني عليك بإقامة شعائر الله عزّ وجلّ، وإبتهل إليه في مواسم الخير، وتوسّل وأتبع آثارنا في القيام بليلة مولد الرسول عليه السلام، واستعدّ لها ممّا تستطيع من الإنفاق العام، واجعله سنة مؤكّدة في كل عام،

تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء، وإن ركبت فيك الغريزة الشعرية وتحليت بالحلية الأدبية زدت جمالا إلى جمالك، وكمالا إلى كمالك، فانظم المولديات واجر مع جملة السابقين في الأدبيات تحوز بذلك أفضل المزيات، فهذا يا بني دأبنا في كل عام وسنننا على الاستمرار والدوام» (أبو حمو، 2011، ص258)، مشيرا إلى ضرورة الحفاظ على العادة والسنة في إقامة شعائر الله بإحياء ليلة المولد النبوي.

استمر ملوك تلمسان على هذا التقليد المستحب حيث كان أبو تاشفين يحتفل "لليلة مولد المصطفى ﷺ بأعظم الاحتفال، ونسجه ونسج أبيه في ذلك على منوال، ويرفع إليه من الممادح الغر الحجال" (التنسي، 1985، ص186)، وقد زاد من بروز خصوصية الاحتفاء بمولده عند سلاطين بني زيان كون احتفالهم بالموسم لم يكن رسما على أهل البلاط وحدهم، فقد أجمعت مختلف الروايات أنّ بني زيان قد أضافوا على هذا الموسم صبغة شعبية وذلك تعميما للفرحة والتوادد والتحابب، وهو أمر لم تفعله بلاطات الملوك المجاورين (السبتي، 2015، ص48).

ثالثا: رمزية الاحتفال بالليلة السابعة للمولد:

يمثل الرقم سبعة للمسلمين المقدس الإسلامي الذي له ارتباط مباشر بالعبادات الموسمية الاحتفالية وبالتالي انعكس ذلك في أدبيات شعرهم ومدائحهم واحتفالاتهم لاسيما في بلاد المغرب الإسلامي، وهذا ما نستشفه من هذين البيتين اللذين ذكرهما ابن الأحمر الغرناطي على لسان أبو العباس بن عبد المنان وهو يمدح السلطان المريني أبو عنان في قوله:

وَجُنَحَ لَيْلٍ تَجَلَّى عَنْكَ فَاجِحُهُ *** وَاَنْتَ قَائِمُهُ بَرًّا وَرَاكِعُهُ

وَمَوْسَمٌ جَلَّ قَدْرًا بِاعْتِنَاكَ بِهِ *** رَاقَتْ لِيَالِيهِ وَازْدَانَتْ سَوَابِعُهُ. (الأحمر، 1987،

صفحة 324).

كما شهد مجتمع مدينة تلمسان عادة احتفال بليلة السابع من ذكرى المولد النبوي الشريف على عهد السلطان أبي تاشفين الثاني (791-795هـ/1389-1393م)، حيث يذكر التنسي قائلا: «ولمّا كانت ليلة سابع المولد المذكور احتفل لها أيضا أعلى الله مقامه، يمثل احتفاله لليلة المولد أو أعظم، ورفع إليه فيها أيضا أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري (الثغري التلمساني، ص222) قصيدة مدحه فيها ومدح نجله الكريم ولي عهده المولى أبا ثابت» (التنسي، 1985، ص196)، يقول فيها:

وَيَكْفُلُهُم بِالْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّدَى وَيَشْمَلُهُم بِالْجُودِ وَالرِّفْقِ وَالرَّفْدِ

لِيُهَنِّكَ مَا جَدَدْتَ مِنْ عَهْدٍ مَوْلِدٍ وَسَابِغُهُ أَكْرَمُ بِذَلِكَ مِنْ عَهْدٍ
جَمَعْتَ جَمِيعَ الْحُسْنِ فِي أَلْيَتَيْهِمَا تُذَكِّرُنَا كِلْتَاهُمَا جُنْدَ الْخُلْدِ
هُوَ الْمَوْلِدُ السَّامِي وَسَابِغُهُ الرُّضِيُّ فَمَا لَهُمَا فِي مَظْهَرِ الْفَخْرِ مِنْ حَدٍ

(التنسي، ص 201).

ومن القرائن الدالة على ذلك ما يشير إليه صاحب زهر البستان على أنّ أبي حمو موسى الثاني أخذ يرتّب شؤونه بعد انقضاء أسبوع المولد وبالتالي الاحتفال كان يبقى طيلة الأسبوع وهذا ما يجعلنا نعتقد أنّ ليلة السابع مثّلت ليلة الختام في مراسم الاحتفال "ولما انقضى أسبوع المولد السعيد أخذ في شأن التسديد والتمهيد" (مجهول، ص 181)، كما تفيدنا نوازل الونشريسي بصورة واضحة عن ذلك في قوله: «ومنها إيقاد الشمع ليلة مولد النبي ﷺ وسابعه» (الونشريسي، ج 2، ص 471)، وكانت هذه العادة جارية عند بني زيان، إذا ما انقضى اليوم السابع من المولد النبوي الشريف ينصرف الناس لانشغالاتهم وقضاء حوائجهم وكأنّ هذا الأسبوع يشكل أيام راحة وعطلة يستمتع بها المحتفلون ويتفرغون كل الوقت في الابتهالات الدينية والامتثال لطقوس التعظيم الروحانية، وبالتالي كان يطلق على هذه الفترة بأسبوع المولد (مجهول، ص 247).

خاتمة:

- أتاحت لنا هذه الدراسة التعرّف عن أنثروبولوجية الواقع المتخيل والعملية للحضرة الاحتفالية في مجتمع مدينة تلمسان، وتوصّلنا من خلال التّيش في هذه الظاهرة الاجتماعية إلى ما يلي:
- كان أول ظهور للاحتفال بالمولد النبوي عند الشيعة الاسماعلية في المشرق الاسلامي، ثم عم بعد ذلك وانتشر في بلاد المغرب خاصة في تلمسان على عهد بني زيان، ليصبح هذا الاحتفال عادة رسمية تقام لها كل طقوس الممارسة والتمثلات.
 - أضفت حضرة الاحتفال طابع القداسة على رمزية المولد، وهي الموعد الذي يتم الحضور فيه والاحتفاء بليلة المولد.
 - بروز تجليات الاحتفال والتجسيدات العملية والممارستية في استحضار واستشعار السلوك الوجداني والروحي لذات النبي ﷺ.
 - الممارسة الطقوسية بمميزات خاصة وهي: إبداء الفرح، وإيقاد الشموع، وإطعام الطعام لمن هم في حاجة إليه، بالإضافة إلى ساعة (المنجاة) التي تبعث رسائل روحية بتوظيفها كسماعات رمزية

تدقّ كلّما مرت ساعة من الليل، فضلا على أن الحضرة الاحتفالية أصبحت عندها من الشعائر التي يعزّ عليها إغفالها أو ترك القيام بها في الأوقات التي أضحت مقدسة .

قائمة المراجع:

أ-المصادر:

- 01- ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل، نثر الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزّمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، سوريا، 1987م.
- 03- ابن حنبل أحمد بن محمد، مسند الامام أحمد بن حنبل، ج41، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2001م.
- 04- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالوادر، تحقيق: عبدالحاميد حاجيات، ج2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011م.
- 05- ابن مرزوق محمد، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوسبيغيرا، تقديم، محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 06- الأنصاري أبو عبد الله محمد ، فهرست الرصاع، تحقيق: محمد العنابي، ط1، 1967م، المكتبة العتيقة، تونس.
- 07- التنسي محمد بن عبد الله، نظم الدر والعيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
- 08- الثغري عبد الله بن محمد، مناقب أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني صاحب مفتاح الوصول ومناقب ولديه، تحقيق: قندوز بن محمد الماحي، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2018م.
- 09- الرصاع محمد بن القاسم، تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط3، المجمع الثقافي أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2002م.
- 10- الزباني أبو حمو موسى، واسطة السلوك في سياسية الملوك، تحقيق: محمود بوترعة، دار النعمان للنشر والتوزيع، 2011م.
- 11- محمد بن أحمد العزفي السبتي، الدر المنظم في مولد النبي الأعظم، تحقيق: عبد الله حمادي، دار دروب للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، 2015م.

- 12- المقرري أحمد بن أحمد، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، م9، تحقيق: مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م.
- 13- الونشريسي أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، ج2، تحقيق: محمد حجي وآخرون، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، 1981م
- 14- اليحصبي القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 15- تقي الدين المقريري (ت845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر.

- 16- مؤلف مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

ب- المراجع:

- 01- الزاهي نور الدين، المقدس الإسلامي، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2005م..
- 02- المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، ط3، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، 2000م.
- 03- جوي أدابون، فن الطهو والأنثروبولوجيا، ترجمة: ربة سعيد الجباعي، مشروع كلمة للترجمة، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.
- 04- شقدان عبد الرزاق، تلمسان في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002م.
- 05- عبد.أ. مهنا، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وكتب هوامشه وقدم له: عبد.أ. مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م.
- 06- فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني - دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
- 07- قوني زينب، الشعر الديني القديم في القرون السابع الثامن التاسع الهجرية موضوعاته وآثاره، أطروحة دكتوراه في اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2015م.
- 07- مرتاض عبد المالك، حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حمو الثاني، مجلة الأصالة، العدد 26، جوبلية أوت 1975م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م.

ج-المراجع باللغة الأجنبية:

- 01-Bargés(L.J.JL), complément de l’histoire des Beni -Zeïyan rois de Tlemcem, ouvrage du Cheikh Mohammed Abd’al-Djalil al-Tenassy, Paris, 1887.
- 02-Catherine Mayeau-Jaouen, Gens de la maison et mouleds d'Égypte, De la religion civique à la religion populaire, Publications de l'École Française de Rome, paris, 1993.
- 03-Dozy (R),supplément aux dictionnaires Arabes,Tome2, Leyde, E.J.Brill,1881.
- 04-Louis Rinn, Marabouts et Khouan étude sur l’islam en Algérie, Alger, 1884.